تفسير ابن كثير

يقول تعالى وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤوساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : { وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين } الاية وقال تعالى : { وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها } الاية قيل معناه : أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم قيل : أمرناهم أمرا قدريا كما قال ههنا { ليمكروا فيها } وقوله تعالى : { أكابر مجرميها ليمكروا فيها } قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس { أكابر مجرميها ليمكروا فيها } قال : سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب .

وقال مجاهد وقتادة { أكابر مجرميها } عظماؤها قلت : وهكذا قوله تعالى : { وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين } وقال تعالى : { وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون } والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخبارا عن قوم نوح { ومكروا مكرا كبارا } وقوله تعالى : { ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا } الاية وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان قال : كل مكر في القرآن فهو عمل وقوله تعالى : { وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون } أي وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم كما قال تعالى : { وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم } وقال { ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون } وقوله تعالى : { وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله } أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا { لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله } أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل كقوله جل وعلا { وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا } الاية .

وقوله { الله أعلم حيث يجعل رسالته } أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى : { وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون

رحمة ربك } الاية يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم { من القريتين } أي من مكة والطائف وذلك أنهم قبحهم ا كانوا يزدرون بالرسول صلوات ا وسلامه عليه بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا كقوله تعالى مخبرا عنه : { وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث ا رسولا } وقال تعالى : { وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون } وقال تعالى : { ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون } هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى ا وملائكته والمؤمنون عليه حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه [الأمين] وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم : وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ـ الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة بن الأسقع Bه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال [إن ا اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم] انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد ا بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه صلى ا عليه وسلّم بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال [من أنا ؟] قالوا أنت رسول ا فقال [أنا محمد بن عبد ا بن عبد المطلب إن ا خلق الخلق فجعلني في خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا] صدق صلوات ا وسلامه عليه وفي الحديث أيضا المروي عن عائشة Bها قالت : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [قال لي جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم] رواه الحاكم والبيهقي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر حدثنا عاصم عن زر بن حبيش عن عبد ا بن مسعود قال : إن ا نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى ا عليه وسلّم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى ا عليه وسلّم فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو

عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سيء وقال أحمد : حدثنا شجاع بن الوليد قال : ذكر قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلّم [يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك] قلت : يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال [تبغض العرب فتبغضني] وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الاية ذكر عن محمد بن منصور الجواز حدثنا سفيان عن أبي حسين قال : أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه فقال : من هذا ؟ قالوا ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال [الله أعلم حيث يجعل رسالته] .

وقوله تعالى : { سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد } الاية هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة لما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلا يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا كقوله تعالى : { إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين } أي صاغرين ذليلين حقيرين وقوله تعالى : { وعذاب شديد بما كانوا يمكرون } لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا { ولا يظلم ربك أحدا } كما قال تعالى : { يوم تبلى السرائر } أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر وجاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال [ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان بن فلان] والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل